بيانات النشر:

***الكتاب التذكاري للأستاذ الدكتور السيد فليفل*، تحرير حسين مراد، معهد البحوث والدراسات الأفريقية (القاهرة، ٢٠١٣) صفحات ٣٤-٤٥.**

أثيوبيا والأثيوبيون في نصوص من الأدب اللاتيني

ماجدة النويعمي

أستاذ الدراسات اليونانية واللاتينية

كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

magda_now@yahoo.com

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل بعض النصوص من الأدب اللاتيني (شعرا كانت أم نثرا) لمعرفة موقع أثيوبيا والأثيوبيين من الفكر الروماني. ومن هنا أتناول في هذا البحث النقاط التالية[١]:

١-خلفية تاريخية موجزة عن علاقة روما بأثيوبيا، في العصر الإمبراطوري، توضح لماذا كتب الرومان عن أثيوبيا والأثيوبيين.

٢-أثيوبيا في الأساطير الرومانية.

٣-الأوصاف العرقية للأثيوبيين، على نحو ما يتضح من النصوص اللاتينية.

٤-العبيد الأثيوبيون في روما.

٥-انقسام الأثيوبيين إلى نوعين في المصادر القديمة.

ومن أجل تحقيق هذه الغاية، ألجأ إلى الاستعانة حينا، والمقارنة حينا آخر، بالمصادر الإغريقية التي تتحدث عن أثيوبيا، بدءا بالشاعر هوميروس Homerus (حوالي القرن التاسع ق.م).

[١] - لعله من المناسب أن أوضح هنا أنني لن أتبع الترتيب الزمني في معالجة المصادر الأدبية اللاتينية ولكني سأتبع التقسيم الموضوعي وفقا للنقاط الخمس التي أوردتها في المتن أعلاه.

مع بداية العصر الإمبراطوري الروماني، وجه الإمبراطور أوغسطس Augustus أول الأباطرة الرومان (٢٧ ق.م.- ١٤ م)، اهتمامه إلى تأمين حدود الإمبراطورية، فأرسل الحملات إلى أماكن عدة من أنحاء الإمبراطورية بغية تحقيق هذا الهدف. ومع بداية الحكم الروماني في مصر، ثارت منطقة طيبة على الحكم الجديد، فتوجه كورنيليوس جالوس Cornelius Gallus، أول وال روماني على مصر(من ٣٠- إلى٢٧ أو ٢٦ق.م.) نحو الجنوب، لقمع هذه الثورة، وبالفعل أخضع طيبة، وسجل هذه الحادثة على لوح من الجرانيت، تفاخرا بما حققه من انتصارات[٢]. وقد عثر على هذا اللوح في جزيرة فيلاي Philae (أنس الوجود)، ويرجع تاريخه إلى عام ٢٩ ق.م. وما يعنيني في هذا المقام هو أن كورنيليوس جالوس ذكر في نقشه على هذا اللوح أنه "استمع إلى سفراء ملك الأثيوبيين (النوبيين) عند جزيرة فيلاي، وقبل ملكهم تحت الحماية".غير أن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد، بل ظلت منطقة أثيوبيا لفترة من الزمن مصدر قلق للسلطات الرومانية في مصر. فتهديد حدود مصر الجنوبية يعني تهديد حدود الإمبراطورية الرومانية الجنوبية، وهو أمر ليس باليسير.

تحين الأثيوبيون الفرص للإغارة على جنوب مصر. ولعل الدليل على ذلك أنه ما أن أرسل الإمبراطور أوغسطس حملته الشهيرة على بلاد العرب (في ٢٥-٢٤ ق.م.) حتى أغار الأثيوبيون بقيادة ملكتهم كنداكي[٣] Kandake على القوات الرومانية القابعة في جنوب مصر، وسببوا قلقا للسلطات الرومانية في مصر، مما أدى إلى تحرك جايوس بترونيوس Gaius Petronius ثالث وال روماني على مصر (من ٢٤- ٢١ ق.م.) نحو الجنوب لصد هذه الهجمات في ٢٤- ٢٢ ق.م[٤].

---

[٢]- بيانات هذا النقش:(*Corpus Inscriptionum Latinarum*, 14147).

كتب هذا النقش بلغات ثلاث، هي المصرية، و الإغريقية، واللاتينية.

[٣]- يبدو أن كنداكي كان لقبا بمعنى ملكة. عن الكنداكي الحاكمات، انظر:

W. E. B. Du Bois, *The Negro* (Pennsylvania State Univ., 2007) p. 24.

[٤]- عن هذه الحملة، انظر:

عبد اللطيف أحمد علي، *مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية* (دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٥) ص ٦٧ وما يليها؛ مصطفى العبادي، *مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي* (مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٥) ص ١٦٦.

يخبرنا الإمبراطور أوغسطس، في سجل *"منجزات أوغسطس المؤله"* (*أثر أنقرة*)[٥]:

(*Res Gestae Divi Augusti*, 26.5) بما يلي:

"بأمري وتحت رعايتي تم إرسال جيشين في الوقت نفسه تقريبا، الواحد إلى أثيوبيا، والآخر إلى بلاد العرب"[٦].

ولكن يرجح المؤرخون أن حملة بلاد العرب هي السابقة[٧]، على النحو الذي ذكرته. وربما نظرا لفشل هذه الحملة عسكريا فقد أرجأ أوغسطس ذكرها، وذكر قبلها الحملة التي نجحت، وهي الحملة على أثيوبيا. وأيا ما يكون التفسير الحقيقي لما ورد في هذا النص، فقد نجح جايوس بترونيوس بالفعل في حملته على أثيوبيا أيما نجاح. ومع ذلك عاود الأثيوبيون، بعد عامين، مهاجمة القوات الرومانية جنوب مصر من جديد، مما دفع الوالي جايوس بترونيوس إلى العودة إلى استخدام السلاح ضدهم[٨]. وانتهى الأمر بأن طلب الأثيوبيون، بقيادة ملكتهم (كنداكي)، الصلح. أرسل الأثيوبيون سفراءهم إلى الإمبراطور أوغسطس، وتم بالفعل توقيع الصلح معه في ٢١- ٢٠ ق.م. وربما صار الأثيوبيون آنذاك تابعين للرومان[٩]. وبمقتضى بنود الصلح احتل الرومان جزءا من أراضي أثيوبيا أقامت فيه قواتهم العسكرية، ومن ثم استتب الأمر لفترة طويلة

---

[٥] - هذا النقش عبارة عن وثيقة تحوي موجزا بمنجزات الإمبراطور أوغسطس العسكرية وغيرها. ويسمى باسم *"أثر أنقرة"*، وذلك لأنه عثر على النقش اللاتيني مع ترجمة يونانية له لأول مرة في أنقرة عام ١٥٥٥ م. ويطلق على هذا النقش "غرة النقوش اللاتينية"، انظر في ذلك: عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص ٤٨.

[٦]- يبرز المؤرخ هويلاند دور الدافع الشخصي لدى الإمبراطور أوغسطس ورغبته في أن يتفوق على الإسكندر الأكبر الذي استهواه كثيرا، ولهذا الغرض أرسل أوغسطس في ٢٦ ق.م. إيليوس جالوس ليتكشف القبائل والأماكن، ليس فقط في بلاد العرب، وإنما أيضا في أثيوبيا، انظر في ذلك:

R. Hoyland, *Arabia and the Arabs* (Routledge, 2001) p. 45.

[٧]- انظر في ذلك:

مصطفى العبادي، *الإمبراطورية الرومانية: النظام الإمبراطوري ومصر الرومانية* (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٥) ص ١٢٢. وكذلك انظر:

G. Bowersock, *Roman Arabia* (London, 1983) pp. 46, 49.

[٨] - عن حملة جايوس بترونيوس الثانية، انظر: ديو كاسيوس (الكتاب رقم ٥٤، الفقرة الخامسة). انظركذلك: عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص ٦٨.

[٩]- انظر التعليق الموجود في:

P. A. Brunt, & J.M. Moore, *Res Gestae Divi Augusti*, ed. with introduction & commentary (Oxford, 1975) p. 71.

جدير بالذكر أن الإمبراطور أوغسطس، على نحو ما يذكر لنا المؤرخ سويتونيوس Suetonius (*أوغسطس*، ٤٨)، عامل الملوك التابعين كأعضاء في الإمبراطورية الرومانية، وكان الرومان يطلقون على هؤلاء الملوك "أصدقاء"، و"حلفاء".

من الزمن في هذه المنطقة. والأرجح أن هدف الإمبراطور أوغسطس كان تأمين المصالح، وتأمين الحدود، فحدود الإمبراطورية الرومانية الجنوبية تقف عند حدود مصر الجنوبية، ولم يهدف الإمبراطور إلى إضافة حدود جديدة للإمبراطورية. وفي اعتقادي أنه يوجد أكثر من دليل على ذلك:

أولا: لا شك أن الإمبراطور أوغسطس كان مدركا لمسألة أن للرومان مصالح في أثيوبيا، وبالتالي من الضروري تأمين هذه الحدود.

ثانيا: رغم أن الوالي بترونيوس كان في موضع قوة في حملاته على أثيوبيا، وكان بإمكانه الاستمرار، لو أراد الإمبراطور أوغسطس ذلك، إلا أنه اكتفى بتأديب الأثيوبيين فقط، وذلك لإغارتهم على جنوب مصر.

ثالثا: تؤكد اتفاقية الصلح مع الكنداكي أن الأمر بالنسبة لأوغسطس لم يكن أكثر من عملية التأديب، وإلا لما قبل الصلح وهو في موضع قوة.

نعرف من عدد من المصادر القديمة[١٠]، مثل سنيكا الفيلسوف Seneca Philosophus (٥ق.م - ٦٥ م)، وبلينيوس الأكبر Plinius Maior (٢٣م - ٧٩ م)، وديو كاسيوس Dio Cassius (القرن الثالث الميلادي)، أن الإمبراطور نيرون Nero (٥٤ – ٦٨م)، أرسل بعثة استكشافية إلى أثيوبيا في ٦١م، قوبلت بحفاوة، وقامت بجمع المعلومات الجغرافية المطلوبة. وقيل إن الإمبراطور نيرون ربما كان ينوي إرسال حملة عسكرية لغزو أثيوبيا بعد ذلك، ولكنه عدل عن الفكرة. وقد تكون هذه الأخبار مجرد شائعات روجها بلينيوس الأكبر ضد نيرون، نظرا لكراهيته الشديدة لهذا الإمبراطور[١١]. على أية حال فقد أهمل هذا المشروع بعد موت نيرون.

---

[١٠]- انظر في ذلك:

سنيكا (*"المسائل الطبيعية" Quaestiones Naturales*، الكتاب السادس، الفقرة رقم ٨، القطعتان ٣-٤)؛ بلينيوس الأكبر في موسوعته (*"التاريخ الطبيعي"*، *Historia Naturalis* الكتاب السادس، الفقرة رقم ١٨١؛ والكتاب الثاني عشر، الفقرة رقم ١٩)؛ ديو كاسيوس (الكتاب رقم ٦٢، الفقرة رقم ٨، القطعة الأولى).

[١١] - انظر في ذلك:

عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص ص ١٣١، وما بعدها.

أبو اليسر فرح، *النيل في المصادر* الإغريقية (عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٥) ص ص ٩٧، وما يليها. انظر كذلك:

M. Cary, & H. Scullard, *A History of Rome* (Macmillan, 1986 repr.) pp. 360, 366f.

ولعل الجانبين السياسي والعسكري، بالإضافة إلى الرغبة في تأمين حدود الإمبراطورية الجنوبية، لم يكونا وحدهما وراء اهتمام الرومان بإقليم أثيوبيا، فهناك أيضا العامل الاقتصادي المتمثل في رغبة الرومان في تأمين تجارة العاج الآتية من أفريقيا، وربما معها تجارة الأفيال التي كانت تحتاجتها روما للعرض في السيرك، على نحو ما نعرف من بلينيوس الأكبر (*"التاريخ الطبيعي" Historia Naturalis*، الكتاب الثامن، الفقرتان ١١، ١٣). ولا ننسى أيضا رغبة الرومان في تأمين التجارة الشرقية بصفة عامة، الآتية من الهند وبلاد العرب وأفريقيا، وضمان إمكانية تحويلها إلى الموانى المصرية، بعد فرض السيطرة الرومانية على البحر الأحمر بأكمله.

ولعل هناك سببا هاما آخر وراء اهتمام الرومان بأثيوبيا وهو عامل اقتصادي- اجتماعي مشترك في آن واحد، ويتمثل في تجارة العبيد الذين صاروا جزءا هاما من حياة الأسرة الرومانية، بل والمجتمع الروماني بأكمله، على نحو ما سنرى. وقد كان العبيد الأثيوبيون يمثلون عنصرا متميزا على باقي العبيد من الجنسيات الأخرى.

إلى جانب ما سبق ذكره من نقاط، تبقى نقطة هامة يجدر بنا أن نضعها في الاعتبار، ألا وهي أن الرومان بعد أن بسطوا أيديهم على مصر، وذلك نتيجة لانتصار روما في موقعة أكتيوم Actium، في ٣١ ق.م.، على الملكة البطلمية كليوباترا Cleopatra، صار للرومان وجود قوي في مصر التي يربطها بأثيوبيا صلات تتمثل، بصورة رئيسية، في كل من نهر النيل، والإله المصري أوزوريس Osiris. وقد عبر ديودوروس الصقلي (حوالي ٨٠-٢٠ ق.م.) Diodorus Siculus عن ذلك خير تعبير، ففي سياق حديثه عن رحلة أوزوريس في عديد من بلدان العالم (*"المكتبة التاريخية" Bibliotheca Historica* ، الكتاب الأول، الفقرة رقم ١٨، القطعة رقم ٦) يذكر زيارته لأثيوبيا، حيث علم سكانها الزراعة، وأسس بعض المدن الشهيرة هناك، وترك وراءه رجالا يحكمون البلاد، ويجمعون الضرائب. ومرة أخرى في (الكتاب نفسه، الفقرة رقم ١٩، القطعة رقم ٥) يذكر ديودوروس وصول الإله المصري أوزوريس إلى حدود أثيوبيا حيث وضع حواجز على ضفتي نهر النيل، حتى لا تتكون برك من المياه، وحتى يمكن الاستفادة من مياه الفيضان، فتتدفق ببطء قدر الحاجة من خلال البوابات التي بناها[١٢].

[١٢]- أضف إلى ذلك أن ديودوروس في (*"المكتبة التاريخية"* ، الكتاب الأول، الفقرة رقم ٣٨، القطعة رقم ٤، وما يليها) فند الرأي القائل بأن فيضان النيل يسبب ذوبان الجليد في أثيوبيا.

بعد هذه المقدمة التاريخية الموجزة يمكننا أن نستعرض بعض النصوص الأدبية اللاتينية التي تتحدث عن أثيوبيا والأثيوبيين[١٣] في الفكر الروماني. وجدير بالذكر أن تناولي لهذه المصادر هنا يأتي وفقا للتقسيم الموضوعي الذي أشرت إليه آنفا في مطلع هذه الدراسة، وليس بترتيب التسلسل التاريخي لهذه المصادر الأدبية. وأول النصوص التي أتخيرها، نص له طرافته من قصيدة *"التحولات" Metamorphoses*، للشاعر الروماني أوفيديوس Ovidius (٤٣ ق.م. – ١٧م). ولعل هذا المثال يوضح كيف أدخل الرومان أثيوبيا في فكرهم الأسطوري، على غرار ما فعل الإغريق من قبلهم[١٤]، وكيف ربطوها بشخصياتهم الأسطورية. والأسطورة المعنية هنا إغريقية الأصل، نقلها عنهم الرومان، وهي أسطورة فايثون Phaethon.

تروي الأسطورة، التي أوردها الشاعر أوفيديوس باستفاضة (*"التحولات"*، الكتاب الأول، البيت ٧٤٧- الكتاب الثاني، البيت ٤٠٠) أن البطلة الأسطورية كليميني Clymene أنجبت من إله الشمس ابنا، هو فايثون، وأخفت نسبه الحقيقي، وأشاعت أنه ابنها من زوجها ميروبس Merops، ملك أثيوبيا. وذات يوم دخل فايثون في مهاترات صبيانية مع رفيق له، هو إيبافوس Epaphus، ابن إيو Io من كبير الآلهة يوبيتر Iuppiter، فقام إيبافوس باستثارة مشاعر فايثون واتهامه بأنه لا يعرف حقيقة نسبه، حيث أنهم أوهموه بنسبه إلى أب غير حقيقي، مما دفع فايثون إلى استجواب أمه عن حقيقة نسبه. وأمام إصرار فايثون على معرفة الحقيقة، أخبرته أمه بأنه ابن إله الشمس، ومن ثم توجه فايثون إلى المكان الذي يشرق منه والده عساه أن يتيقن من هذه المعلومة. ويذكر أوفيديوس أن الطريق الذي سلكه فايثون للوصول إلى إله الشمس هو موطنه أثيوبيا، ثم بلاد الهند التي تقع بالقرب من قرص الشمس، على نحو ما تذكر الأسطورة. وبعد لقاء فايثون بوالده، إله الشمس، عرض عليه والده أن يجيبه إلى أي مطلب ليبدد شكوكه في حقيقة انتسابه إليه.

---

[١٣] - عن أثيوبيا القديمة، الشعب والأرض، انظر:

D. D. Houston, *Wonderful Ethiopians of the Ancient Cushite Empire* (Oklahoma, 1926) pp. 27 ff.; Randolf Jackson, *Great Black Empires*, accessed at:

http://www.blackpeopleinthebible.com/downloads_folder/downloads/Empires.pdf

[١٤] - عن الثقافة الهلينية في مدينة ميروي Meroe الأثيوبية، انظر:

ديودوروس الصقلي (*"المكتبة التاريخية"*، الكتاب الثالث، الفقرة رقم ٣٨، وما يليها)؛ استرابون (*"الجغرافيا"*، الكتاب رقم ١٦، الفقرات ٧٧٣-٧٧٤، ٧٨٥-٧٨٧).

طلب فايثون من والده أن يتنازل له عن مركبته ذات الخيول المجنحة ليركبها لمدة يوم واحد. ولكن تردد الأب (إله الشمس) لإدراكه خطورة المطلب، بينما الابن بقصور تفكيره البشري، وبطيش الشباب لم يقدر مغبة هذا الأمر. وعبثا حاول الأب أن يثني ابنه الطائش عن هذا المطلب الخطير. وما أن ركب فايثون العربة حتى عجز عن السيطرة عليها، فخرجت عن مسارها المعتاد، محدثة سلسلة من الكوارث في الكون، فاندثرت مدن بأكملها، وتحولت شعوبها إلى رماد. وفي سياق هذه الكارثة الكونية، التي اشتعل فيها العالم بالنيران، شاع بين الناس أن بشرة الأثيوبيين، في تلك الأثناء، قد استحالت إلى السواد، إذ انبثق الدم في عروقهم[١٥]. والتفسير الوارد هنا هو تفسير أسطوري يعكس فكر الإغريق والرومان الأوائل، ومع ذلك فقد ظلوا يعتزون بأساطيرهم، مع إدراكهم فيما بعد لعدم صحة ما ورد بها.

وعن الصفات العرقية للأثيوبيين، بما فيها لون البشرة، يقابلنا نص آخر من الكاتب بترونيوس Petronius (توفي في ٦٦ م)، في روايته الشهيرة *"الساتيريكا" Satyrica*، يجعل فيه بطل قصته، وتابعه يفكران في التخفي، حتى يمكنهما الهروب من أعداء لهما على متن إحدى السفن، ويتنكران في صورة عبدين أثيوبيين (*"الساتيريكا"*، الفقرتان ١٠٢- ١٠٣). ويقترح البطل على تابعه استخدام حبر الكتابة في صبغ جسديهما بالسواد، من الرأس إلى القدم، حتى يصيرا كالعبيد الأثيوبيين. فقد كان لون البشرة الأسود هو أول وأهم الخصائص التي تميز الأثيوبي عن غيره[١٦]. ومن هنا جاء إقتراح بطل القصة على تابعه بصبغ جسديهما بالسواد. غير أن تابعه يسخر من فكرة أن الروماني يمكن أن يؤخذ خطأ على أنه أثيوبي، لمجرد وجود لون البشرة الأسود، فما اللون الصناعي، من وجهة نظره، إلا *"اتساخ يلحق بالجسد، دون أن*

---

[١٥]- جدير بالذكر أن اسم الأثيوبيين Aetheopes يعني "ذوي الوجوه المحترقة"، على نحو ما أطلق عليهم الإغريق. وعادة ما كان الإغريق يطلقون هذا الاسم على أي إقليم يقع في أقصى الجنوب، انظر في ذلك:

Oxford Classical Dictionary, ed. M. Cary et al. (Oxford, 1948), s.v.Ethiopia.

ويلاحظ أيضا أن الشاعر الروماني فرجيليوس في (*"الرعويات" Eclogae*، رقم ١٠، البيت رقم ٦٨) قد ذكر الأثيوبيين على أنهم سكان أقصى الجنوب، وأن أثيوبيا مضرب المثل في حرارتها في فصل الصيف، مثلما أن نهر هيبروس Hebrus، في طراقيا، مضرب المثل في برودة شتائه. انظر تعليق كل من:

R. Coleman (ed.), *Vergil: Eclogues*, ed. with introduction& commentary (Cambridge, 1986) pp. 292 f.; R.D. Williams (ed.), *Virgil: The Eclogues and Georgics*, ed. with introduction & commentary (Macmillan, 1987) p. 132.

[١٦] - وصل هذا الأمر إلى درجة أن صفة السواد صارت قرينة لاسم الأثيوبيين في الفكر الإغريقي والروماني، انظر في ذلك:

Frank Snowden, *Blacks in Antiquity: Ethiopians in the Greco-Roman Experience* (Harvard University Press, 1970) pp. 2ff.

يغير من حاله شيئا". ويتساءل باستنكار شديد: *"وهل سننفخ شفاهنا إلى حد الغلظة كالأثيوبيين؟ وهل سنجعد شعرنا؟ وهل سنخدد وجوهنا بالندب؟ وهل سنجعل أرجلنا مقوسة؟ وهل سنجعل عظام كواحلنا مقلوبة تلمس الأرض؟*[١٧] *وهل سنصنع لأنفسنا لحى بطراز أجنبي؟"* والإجابة المتوقعة عن كل هذه الأسئلة الاستنكارية هي النفي، فالبشرة السوداء ما هي إلا واحدة من اختلافات عرقية عديدة تفرق بين الأثيوبي والروماني، (أو الإغريقي)[١٨]. وجدير بالذكر أن البشرة السوداء، أو السمراء لم تكن لتوظف توظيفا عنصريا[١٩]، حتى وإن أتت في سياق قد يبدو ساخرا، إلا أنها كانت توظف للتمييز بين السلالات[٢٠]. بالإضافة إلى أن هذا التصوير قد دخل في نسيج الخيال الأدبي للكتاب الرومان، وصار جزءا من متعة الأدب[٢١].

وجدير بالذكر هنا أنه يقال إن الكاتب بترونيوس، مؤلف *"الساتيريكا"*، كان ابنا أو حفيدا لجايوس بترونيوس، الوالي الروماني الثالث على مصر، الذي رد هجوم الأثيوبيين في حملات عقابية، على نحو ما ذكرت آنفا، وعاد بأسرى أثيوبيين اصطحبهم إلى منزله في روما، ومن ثم كان للكاتب بترونيوس ألفة بالعبيد الأثيوبيين، ومن هذا المنطلق أمكنه أن يصفهم في روايته،

---

[١٧]- الشائع عن الزنوج أنهم يتميزون بعظام الكواحل العريضة، وكذا أعقاب الأقدام، وأنهم يسيرون وأقدامهم شبه مقلوبة، بحيث تلمس عظام الكواحل الأرض.

[١٨] - عن الصورة السلبية التي نظر بها الرومان إلى ذوي البشرة السوداء بما فيهم الأثيوبيين، انظر:

Lloyd Thompson, "Roman Perceptions of Blacks", *Electronic Antiquity* Vol. 1 No. 4 (1993) pp. 1-25.

[١٩] - انظر في ذلك:

Snowden (1970) pp. 169ff, 176ff.

انظر كذلك:

مقدمة أحمد عتمان للطبعة العربية لكتاب مارتن برنال، *أثينة السوداء: الجذور الأفروآسيوية للحضارة الكلاسيكية*، الجزء الأول: *تلفيق بلاد الإغريق ١٧٨٥-١٩٨٥*، تحرير ومراجعة وتقديم أحمد عتمان (المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٧) ص ص ٤٣، وما يليها.

[٢٠] - ليس أدل على ذلك مما قاله مانيليوس (*Astronomica*, iv, 722-730) عن تدرج السواد من الشدة المتمثلة في بشرة الأثيوبيين، إلى ما هو أخف سوادا كما في بشرة الهنود، إلى الإسمرار كما في بشرة المصريين.

[٢١] - انظر:

William Fitzgerald, *Slavery and the Roman Literary Imagination* (Cambridge, 2000).

ويظهر صفاتهم العرقية الحقيقية. وإن كان الأمر في تقديري أبسط من ذلك، فالعبيد الأثيوبيون وجدوا على نطاق واسع في روما، وكان من السهل التعرف عليهم، ومن ثم معرفة خصائصهم العرقية. وقد كان أول الأثيوبيين الذين جاءوا إلى روما هم أسرى حرب وعبيد في البداية، ثم بعد ذلك جاءها أثيوبيون عن طريق التجارة[٢٢].

ولعل وصف الكاتب بترونيوس للعبيد الأثيوبيين يذكرنا بوصف آخر لعبدة أفريقية، ورد ذكرها في قصيدة غير شائعة، تنسب إلى الشاعر الروماني الأشهر، فرجيليوس Vergilius (٧٠- ١٩ ق.م.). وهذه القصيدة تحمل اسم *Moretum* ، وتعني *"طبق السلطة الريفي"*[٢٣]. ويرجح أن هذه العبدة أثيوبية، على أساس أن المصادر القديمة تستخدم كلمتي أثيوبي Aethiops، وأفريقي Afer بالتبادل للمعنى نفسه[٢٤].

يصف الكاتب (ربما كان فرجيليوس)، في هذه القصيدة (الأبيات ٣٢-٣٥) هذه العبدة، وتدعى سكايبالي[٢٥] Scybale، بقوله:

---

[٢٢]- يضيف سنودن إلى ذلك أن هناك أثيوبيين جاءوا إلى بلاد الإغريق وإيطاليا في مهام دبلوماسية أو تجارية:

Snowden (1970) p. 186.

[٢٣]- هذه القصيدة منشورة ضمن الأعمال الصغيرة المنسوبة إلى فرجيليوس، وليست منشورة في كل طبعات نصوص هذا الشاعر. والطبعة التي رجعت إليها في هذه الدراسة هي:

Virgil, *The Minor Poems*, ed. with an English trans. H. R. Fairclough (LCL, 1946).

[٢٤]- لا يقتصر خلط الأسماء على الأفريقي والأثيوبي فحسب، بل كثيرا ما حدث الخلط في المصادر القديمة بين الأثيوبي والهندي، انظر على سبيل المثال:

Vergil, *Georgics*,IV. 293; Ovid, *Ars Amatoria*, I. 53.

الخلط نفسه يحدث بين كلمتي ليبي وأفريقي، ليدلا على معنى واحد أحيانا. ومما يذكر في هذا السياق أيضا أن الشاعر الروماني هوراتيوس Horatius في ديوانه (*"الأغاني" Carmina*، الكتاب الثالث، القصيدة السادسة، البيت رقم ١٤)، ذكر كلمة أثيوبي Aethiops، ويعني بها مصري، وذلك في سياق حديثه عن القوات البحرية المصرية للملكة البطلمية كليوباترا، في موقعة أكتيوم البحرية، انظر التعليق الموجود في:

Horace, *The Odes*, ed. with introduction & commentary K. Quinn (Macmillan, 1980) p. 256. Cf. Snowden (1970) pp. 11ff.

[٢٥]- جدير بالذكر أن العبيد، في المجتمع الروماني، كانوا يمنحون أسماء إغريقية، بغض النظر عن جنسياتهم.

Cf. Snowden (1970) pp. 12ff., 15ff.

"تنحدر من أصل أفريقي، ويكشف شكلها عن موطنها الأصلي: شعرها مجعد، شفتاها غليظتان، لونها داكن، صدرها عريض، ثدياها متدليان إلى أسفل، بطنها مضغوطة ذابلة، ساقاها نحيفتان، قدماها عريضتان"[٢٦].

ويعد هذا الوصف أشهر وأدق تصوير لواحدة من الزنوج في الأدب الروماني. ولا شك أن فرجيليوس، أو أي كاتب آخر، كان يعرف النمط الأثيوبي لأن تجارة العبيد كانت واسعة الانتشار آنذاك. فنعرف من الجغرافي استرابون Strabo (حوالي ٦٤ ق.م –٢١ م)، في عمله (*"الجغرافيا" Geographika*، الكتاب رقم ١٤، الفقرة الخامسة، القطعة الثانية) أن الرومان، بسبب الثراء الذي أعقب الحروب البونية مع قرطاجة، صاروا في حاجة إلى أعداد كبيرة من العبيد[٢٧]. فقد ازداد الأغنياء غنى إلى غناهم، وازدادت مساحة الأراضي التي يمتلكونها. وقد صار هؤلاء العبيد أحد أعمدة الحياة الاقتصادية والاجتماعية في روما القديمة، منذ أواخر عصر الجمهورية، أي في النصف الأخير من القرن الأول قبل الميلاد، بحيث صارت روما تعج بالعبيد، الذين قامت على أكتافهم حياة الطبقة الأرستقراطية في المجتمع الروماني[٢٨]. وطبقا لما قاله المؤرخ أبيانوس Appianus (ولد حوالي ٩٦ م)، في عمله (*"الحرب الأهلية" Bellum Civile*، الكتاب الأول، الفقرة السابعة)، فامتلاك العبيد عاد بالنفع الكبير على ملاك الأراضي، الذين عهدوا إليهم بفلاحة الأرض، بدلا من الإيطاليين، نظرا لأن هؤلاء العبيد معفيون من الخدمة العسكرية، وذلك لكونهم من أصل غير حر.

ومن هنا امتلأت إيطاليا بسكانها من العبيد، في حين قل عدد السكان الأصليين من الإيطاليين بصورة مروعة. أما صغار المزارعين من الإيطاليين، الذين عاشوا بعد الحروب البونية، فقد بقوا في حالة من البطالة.

---

[٢٦]- قارن ذلك بما ورد عند ديودوروس الصقلي (*"المكتبة التاريخية"*، الكتاب الثالث، الفقرة رقم ٨، القطعة رقم ٢) في وصفه للأثيوبيين بقوله: "كانت لديهم بشرة شديدة السمار، وأنوف مسطحة، وشعر مجعد، خاصة أولئك الذين يعيشون على شاطئ النهر"، والمقصود هنا نهر النيل. قارن كذلك:

Seneca, *De Ira*, 3. 26. 3; Iuvenalis, *Saturae*, 13. 162-66; Martialis, *Epigrammata*, 6. 39. 6-9, 7. 89.2; Plinius, *Historia Naturalis*, 7.51.

[٢٧]- قارن ذلك بما ورد عند المؤرخ فيليوس باتيركولوس Velleius Paterculus (١٩ ق.م -٣٠م) وذلك في (الكتاب الثاني، الفقرة الأولى).

[٢٨]- يقول كيفر أن روما بعد أن صارت القوة المسيطرة على البحر المتوسط، صارت أيضا المستغلة التي لا ترحم، ومن هنا بدأت روما تمتلئ بملايين من العبيد الذين قام عليهم البناء الاجتماعي بأكمله. هذا البناء احتوى على خطر مميت، فقد قدر له أن يتهاوى بمجرد أن زالت الأسس التي قام عليها، أي بمجرد أن توقف الإمداد الدائم للعبيد:

Otto Kiefer, *Sexual Life in Ancient Rome* (London, 1976) p. 4.

وبعد أن تدفقت الثروات على روما من جراء انتصاراتها في الشرق، على نحو ما نعرف من المؤرخ الروماني ليفيوس Livius (٥٩ ق.م- ١٧م)، في عمله (*"منذ تأسيس المدينة" Ab Urbe Condita*، الكتاب رقم ٣٩، الفقرة رقم ٦)، أدى ذلك إلى الثراء الفاحش في روما، وأنفق الرومان الأموال الطائلة على الولائم[٢٩]، التي عدت أحد مظاهر الحياة الاجتماعية المترفة في روما، ومن ثم ارتفعت أسعار العبيد بصورة ملحوظة، كما يقول المؤرخ ليفيوس[٣٠]. وقد كان العبيد الأثيوبيون من أفضل العبيد وأغلاهم سعرا[٣١]. وكان هؤلاء العبيد الأثيوبيون يوظفون لدى الأسر الثرية كمرافقين للحمامات[٣٢].

ومرة أخرى، يحدثنا الكاتب بترونيوس، في روايته *"الساتيريكا"*، عن دور العبيد الأثيوبيين في إعداد الولائم، وخدمة ضيوف حفلات العشاء. وعلى سبيل المثال، يقدم بترونيوس وصفا رائعا للوليمة الفاخرة التي أعدها تريمالخيو Trimalchio، وهو شخص من محدثي الثراء. ولعل مقطوعة وليمة تريمالخيو Cena Trimalchionis تعد واحدة من أشهر مقطوعات رواية بترونيوس، إن لم تكن أشهرها على الإطلاق. وفي هذه الوليمة يظهر الكاتب دور العبيد الأثيوبيين. فيقول على لسان راوي القصة (*"الساتيريكا"*، الفقرة ٣٤):

"عندئذ جاءنا اثنان من العبيد الأثيوبيين، ذوي الشعور الطويلة، وأحضروا لنا قربا صغيرة، وأعطونا الخمر كي نغسل أيدينا، حيث أنهم لا يقدمون الماء (لهذا الغرض)".

---

[٢٩]- يذكر المؤرخ ليفيوس، في الفقرة المذكورة أعلاه، أن بدايات الثروة الأجنبية تدفقت على روما بواسطة الجيش القادم من آسيا في ١٨٦ق.م.، فكانوا أول من استورد بضائع للرفاهية، والمتعة، وأساس البيت، وما إلى ذلك. وفي هذه الأثناء خصص الكثير من المال والوقت للعناية بالولائم.

[٣٠]- يذكر المؤرخ ليفيوس (الكتاب ٣٩، الفقرة رقم ٦) أن أسعار الطهاة من العبيد ارتفعت بدرجة كبيرة، بعد أن كانوا من أرخص العبيد وأقلهم تقديرا.

[٣١]- انظر في ذلك:

M. Massey & P. Moreland, *Slavery in Ancient Rome* (Macmillan, 1985) p. 21.

جدير بالذكر أن الأقزام أيضا كانت لهم أسعار عالية، مثلهم مثل العبيد الأثيوبيين.

[٣٢] - انظر في ذلك: بترونيوس (رواية *"الساتيريكا"*، الفقرة رقم ٣٤).

عن اشتراك العبيد الأثيوبيين في السيرك، انظر:

James R. Coates et al., *Being the Others?- Blacks in Blood Games*, accessed at:

http://www.cafyd.com/HistDeporte/htm/pdf/3-8.pdf

هناك جانب آخر من جوانب الصورة العرقية للأثيوبيين التي تقابلنا في نصوص الأدب اللاتيني، وهي ما ذكره الكاتب اللاتيني أبوليوس Apuleius (ولد حوالي ١٢٣ م)، في روايته الشهيرة *"التحولات"*[٣٣] *Metamorphoses* (الكتاب الأول، الفقرة التاسعة)، من أن الأثيوبيين كانوا من نوعين، ولكنه لم يدخل في ذكر تفاصيل هذين النوعين[٣٤]. وربما كان مجرد ذكر هذه العبارة في العصور القديمة مفهوم المعنى للقدامى. وجدير بالذكر، في هذا السياق، أن الكاتب اللاتيني أبوليوس كان من أصل أفريقي، فقد ولد بشمال أفريقيا.

والأرجح أن تقسيم الأثيوبيين قديما إلى نوعين يرجع إلى الخصائص العرقية التي تميز كل نوع. ولكن مما يذكر هنا أن أول نص كلاسيكي أدبي وصلنا بشأن هذا التقسيم، هو ملحمة *"الأوديسية" Odyssea* للشاعر هوميروس (الكتاب الأول، البيت ٢٢، وما يليه)، حيث قسم هوميروس الأثيوبيين، على أساس الموقع، إلى شرقيين وغربيين. وفي موضع آخر يقول هوميروس (*"الأوديسية"* ، الكتاب الأول، البيت ٢٥، وما يليه):

"ذهب بوسيدون Poseidon (إله البحر) بعيدا لزيارة الأثيوبيين، عند أقصى حدود المعمورة، وهم شعب ينقسم إلى قسمين: قسم يوجد حيث يغرب إله الشمس، وقسم يوجد حيث يشرق".

وزيارة بوسيدون، إله البحر الإغريقي، لأثيوبيا كانت من أجل تلقي القرابين، في صورة مئات من الثيران والخرفان، على نحو ما يذكر هوميروس. ولكن اللافت للإنتباه هو أن هوميروس قد جعل الأثيوبيين يقطنون أقصى حدود المعمورة. وهذه العبارة ليس لها دلالة جغرافية دقيقة، وإنما هي بمعايير العالم المعروف له آنذاك.

وجدير بالذكر أن أثيوبيا تظهر في *"الأوديسية"* على أنها المكان الأثير لدى إله البحر الإغريقي، ففي أكثر من موضع من الكتاب الخامس من هذه الملحمة، يشير هوميروس، على

---

[٣٣]- تعرف هذه الرواية أيضا باسم *"الجحش الذهبي"*.

[٣٤]- يفسر المؤرخ دالبي هذه العبارة بأن المقصود بها: ١- نوع عرقي من العبيد جاءوا من السكان الذين يعيشون جنوب مملكة النوبة، في الوادي الأعلى للنيل، وعلى الحدود الشرقية للصحارى. ٢- النوع الثاني يمثل العبيد، الذين تم شراؤهم عن طريق تجار البحر، من ساحل المحيط الهندي، وخاصة من الميناء الصومالي أوبوني Opone الذي يقول عنه *"دليل الملاحة في البحر الأحمر"* (*"الطواف"*) (١٣)، أنه قدم "عبيدا ذوي نوعية عالية، يذهب معظمهم إلى مصر"، بدلا من بلاد العرب، أو بارثيا، أو الهند، انظر:

A. Dalby, *Empire of Pleasures* (Routledge, 2000) p. 178.

لسان بوسيدون، إلى عودته من موطن أصدقائه الأثيوبيين[٣٥]. وذلك رغم عدم علمنا بالحدود الجغرافية لأثيوبيا في فكر هوميروس على وجه الدقة.

أما المؤرخ هيرودوتوس (٤٨٥ – ٤٢٨ ق.م) Herodotus، فقد قسم الأثيوبيين إلى نوعين، على أساس صفاتهم العرقية، وذلك في (*"التواريخ" Historiae*، الكتاب الثالث، الفقرات ١٧- ٢٣، والكتاب السابع، الفقرتان ٦٩- ٧٠):

النوع الأول، هم ذوو الشعر المجعد، وهم الأثيوبيون الحقيقيون، أي الزنوج.

والنوع الثاني، هم ذوو الشعر المستقيم، ويقصد بهم الهنود البدائيين، والواضح أنه قديما كان يتم الخلط بين الأثيوبيين والهنود[٣٦].

واختتم حديثي عن أثيوبيا بطرفة يذكرها ديودوروس الصقلي في (*"المكتبة التاريخية"* ، الكتاب الثاني، الفقرة رقم ١٤، القطعة رقم ٤) مفادها أنه في أثيوبيا توجد بحيرة مربعة الشكل، ذات رائحة ذكية، تشبه رائحة الخمر المعتق، لها قوة متميزة، فمن يشرب منها يقال إنه يصاب بشئ من الجنون، فيعترف على نفسه بكل خطيئة ارتكبها سرا فيما مضى من حياته.

من العرض السابق، يتضح أن أثيوبيا والأثيوبيين، احتلوا مكانة كبيرة في الفكر الروماني، على نحو ما كان الوضع في الفكر الإغريقي من قبل، وذلك نتيجة ما كان بينهم وبين الرومان من مواجهات سياسية وعسكرية، وصلات ومصالح اقتصادية واجتماعية. وهذا هو الوضع المألوف لتداخل الحضارات القديمة[٣٧]. ولا عجب إذا أن نجد تحولا في الدراسات

---

[٣٥]- انظر على سبيل المثال:

ملحمة*"الأوديسية"* (الكتاب الخامس، البيتان رقم ٣١٠، و ٣١٦).

[٣٦]- انظر في ذلك:

W. Ball, *Rome in the East* (Routledge, 2001) p. 402.

ولكن قارن: Manilius, *Astronomica*, iv, 722ff.

جدير بالذكر أن الشاعر التراجيدي الإغريقي أيسخيلوس Aeschylus (٥٢٥– ٤٥٦ ق.م.)، في مسرحيته *"المستجيرات" Hiketides* (الأبيات ٢٨٤ – ٢٨٦) جعل امتداد الأثيوبيين يصل إلى الهند.

[٣٧] - يشير بوركرت إلى ميل النظريات الثقافية الحديثة في تناول الحضارة على أنها نظام ناتج عن آلياته الداخلية الخاصة، الاقتصادية والاجتماعية، التي من شأنها التقليل من جميع المؤثرات الخارجية. ويضيف قائلا إنه رغم عدم إنكار الذكاء الفكري لمثل هذه النظريات وما أنجزته، ولكنها ربما لا زالت تمثل وجها واحدا من العملة، لأنه من الصحيح بالقدر نفسه أن ننظر إلى الحضارة على أنها تركيبة معقدة من الصلات، مع فرص مستمرة للتعلم من جديد، ومع حدود معترف بها، ولكن يمكن اختراقها، وذلك في عالم قابل للتغير والتوسع. انظر في ذلك:

الحديثة نحو أفريقيا[٣٨]، القارة السمراء التي تفاعلت وأعطت وأخذت على نحو ما نرى من الشواهد القديمة، حتى وإن أتت بعض هذه الشواهد بصورة غير دقيقة أو بصورة ساخرة، على نحو ما رأينا، إلا أننا لا نستطيع أن نجزم بوجود نزعة عنصرية في الفكر الروماني القديم تجاه ذوي البشرة السوداء تحديدا، بل كان هناك نوع من الخيال الأدبي وظف الصفات العرقية في سياقاته الخاصة للتفرقة بين الأجناس بعضها البعض بما لدى كل جنس من صفات عرقية خاصة به.

Walter Burkert, *The Orientalizing Revolution: Near Eastern Influence on Greek Culture in the Early Archaic Age*, trans. M. E. Pinder & Walter Burkert (Harvard Univ. Press, 1995) p. 7.

[٣٨] - عن التحول نحو أفريقيا، انظر على سبيل المثال:

Shelley Haley, "Black Feminist Thought and the Classics: Re-membering, Re-claiming, Re-empowering", in *Feminist Theory and the Classics,* ed. Nancy Sorkin Rabinowitz et al. (Routlege, 1993) pp. 36ff.

A. Roth, "Building Bridges to Afrocentrism: A Letter to my Egyptological Colleagues", in *The Flight from Science and Reason*, ed. P. Grosset et al., *Annals of the New York Academy of Sciences* 775 (New York, 1996) pp. 313-26.

Lyn Schumaker, *Africanizing Anthropology* (Durham & London, 2001) passim.